

الرسالة الخالدة ومعنى الإنقلاب

في فكر الأستاذ ميشيل عفلق

الدكتور عزالدين دياب

الرسالة الخالدة ومعنى الإنقلاب في فكر الأستاذ ميشيل عفلق

بقلم الدكتور عزالدين دياب

إذا كانت الوحدة العربية تشكل أهم أحد المحاور في فكر الأستاذ، فأن الرسالة الخالدة تعد المحور الذي يكمل محور الوحدة ويندمج به، بل أن الوحدة عنده تأخذ وضعية الشرط الموضوعي للرسالة الخالدة، حيث لا يمكن للأمة العربية تبليغ رسالتها إلا إذا كانت الوحدة العربية قائمة(١): «فالرسالة شيء ملازم للأمة (..) وكل أمة من حقها أن تطمح في أن تكون لها رسالة». لكن الرسالات عند الأستاذ ليست واحدة، وتختلف سويتها من مشروع حضاري الى مشروع حضاري آخر: «ليست كلها على السواء ذات رسالات، أو ليست رسالتها متساوية في درجات النضج، وفي مدى التحقق والشمول».

ونلاحظ من خلال تفريقه بين رسالات الأمم. أن هذا الاختلاف يشكل مدخل الحضارات للحوار والصراع، كما أنه يؤدي الى تنوع الأدوات الحضارية واختلافها.

وعلى هذا الأساس يؤكد على أهمية الرسالة بالنسبة للأمة العربية، حتى أنه يعتبرها من أهم مبررات وجودها. لأن الرسالة صفة للتحريض، وخاصية التعبئة للإنسان العربي. ولذلك يقول عنها(٢): «أن الثورة هي من أجل القضاء على التخلف والاستغلال.. من أجل القضاء على الاستعمار.. ومن أجل سعادة الناس.. الخ ولكن، كل هذا يأتي بالدرجة الثانية بعد الرسالة.. لأنك إذا لم تضع الرسالة في الدرجة الأولى لا تتحرر من الاستعمار ولا تتخلص من الصهيونية. وهذه الأشياء هي الميزة لحركتنا».

وخلال ربط الأستاذ بين الحضارة، والرسالة، والدور الحضاري يضع

نفسه منظرا في مقدمة المفكرين القوميين العرب لعلم الحضارة وفلسفتها. وعلاقة الحوار والصراع، الحضاري بالأدوار، والرسالات الحضارية. وعلاقة الفكرة بالحضارة، وكأنه يريد أن ينبه من خلال أطروحة الرسالة الخالدة، بأن لكل حضارة فكرة، وهذه الفكرة بحال من الأحوال تتشكل هوية الحضارة ومشروعها الحضاري.

وما دام للرسالة هذه الأهمية في فكره، فأن سؤالا يطرح نفسه ما هي الرسالة الخالدة؟ وماذا يقصد بها؟ ولماذا كانت الرسالة ميزا للأمة العربية؟ وما هو مضمونها؟ وهل الرسالة واحدة من اختياراته لتأكيد القيم الروحية التي ينبع منها الدين(٣) «حتى تعود الروح فتسيطر مرة ثانية على الواقع وتفهمه وتستجيب لضروراته»؟

نلاحظ أنه عندما يعطي الأولوية للرسالة فأنه يقصد في جانب من جوانبها الإرادة العربية التي ترفض التجزئة والتخلف والتبعية. كما يقصد بها المهمة النضالية حتى تتمكن الأمة العربية من ممارسة دورها الحضاري. وهذه المهمة نابعة من القيم الموجودة في الثقافة العربية عندما بلغت في مرحلة من التاريخ درجة استنهاض الأمة لا بلاغ الرسالة. إذا فالرسالة على صلة بماض الأمة العربية، وأن الكفاءة التاريخية كامنة فيها، الاسترجاع الموقع الحضاري المتقدم الذي بلغته الأمة. وهي في هذه الحالة المعنى الروحي الذي أفصح عنها الإسلام، وأنضج عروبتها، وأوصلها الى الكمال والعظمة. وهذا المعنى قيمة من قيم الإسلام الذي جعل من القبائل العربية أمة عظيمة.. أمة حضارية طموحة، والطموح حالة من حالات النضال الحضاري «لقد أفصح الدين في الماضي عن الرسالة العربية التي تقوم على مبادئ إنسانية. فهل معنى ذلك بأنه يتعذر على هذه الرسالة أن تكون قومية. وإذا اعتبرناها قومية فكيف فهمها غير العرب فوسعتهم وطبعتهم بطابعها؟»

وعلى ضوء توضيحه لجانب مهم من جوانب الرسالة يتساءل؟ «وهل

الرسالة شيء ينتهي في وقت، أم أنها تتجدد وتتكامل مع الحياة؟ وإذا افترضنا أن مضمونها واحد فما معنى خلود الرسالة؟ هل هو جمودها، أي أنها تحوي أشياء لا تزيد ولا تنقص أم يعني أنها فوق الأشياء، وأنها نزوع ومهمة؟»

ويجيب الأستاذ، وهو يفند الرسالة باحثا عن المرحلة التاريخية الممثلة لحياة الأمة العربيه والمفصحة عنها بدءا من الجاهلية. حيث كان السفر الجاهلي يتضمن جوانب هامة من الرسالة، ثم الإسلام الذي أحدث انقلابا في حياة العرب النفسية والمادية فكان بذلك رسالة لهم. وكان أيضا أداة ارتقاء بالحياة العربية حتى وصلت الأمة الى أن تضع(٤): «الحق فوق العروبة الى أن يتحقق اتحاد العروبة بالحق» وفي هذا الإطار من وجوب اتحاد العروبة بالحق، يجعل الأستاذ الإسلام جزءا من القومية العربية، وجزءا من تكامل الشخصية الحضارية العربية. ولذلك يقول عن الرسالة: «بأنها نزوع واستعداد أكثر من كونها أهدافا معينة محدودة. وهي أيضا في أن يتطلع العرب الى بعث أمتهم. فهذا خير ما يقدمونه للإنسان لأن القيم الإنسانية لا يمكن أن تخصب وتتميز إلا في أمة سليمة، فعلى العرب أن يحيوا حاضرهم حتى يستطيعوا ضمان حياة مستقبلهم، لأن المستقبل لن يأتي ما لم نتوصل الى أن نحيا حاضرنا بآلامه ومآسيه. إن الرسالة العربية الخالدة هي فهم هذا الحاضر وتلبية ندائه استجابة لضروراته. والخلود ليس شيئا بعيدا في الأفق أو خارج نطاق الزمن. أنه ينبعث من أعماق الحاضر فإذا فهمه العرب بصدق وعاشوه بإخلاص فأنهم سيؤدون رسالتهم الخالدة. انهم إذا عرفوا هذه التجربة ومروا بها حتى نهايتها وتغلبوا على ضعفهم ونفسيتهم السطحية الزائفة لا يكونوا قد بنو أمتهم فحسب وانشئوا كيانا قوميا بل يكونون قد قدموا للإنسانية كلها نتيجة هذه التجربة أدوات صالحة أيما صلاح ومهيأة أيما تهيئة لحمل أعظم الرسالات وأصدقها».

ونلاحظ من النص السابق أن الأستاذ خلال توصيفه الغنى لمعاني الرسالة بأن فيها أدوات منهجية لفهم الواقع العربي وتحليله من أجل

الاستجابة لضروراته وأن في الرسالة جانب تحريضي نضالي يتضمن البعد الوطني والقومي والإنساني ويتلخص في نهوض الأمة العربية وتخلصها من كل ما يعيقها عن ممارسة إنسانيتها. ومن الجوانب أو الأبعاد النضالية في الرسالة: البعد الوطني البعد القومي. البعد الإنساني يستخلص الأستاذ القانون الحضاري الذي يتمثل في أن الحق فوق العروبة الى أن يتحقق اتحاد العروبة بالحق.. والرسالة تعني في حالة من حالاتها الإسلام: «رجل من العرب بلغ رسالة سماوية فراح يدعو إليها البشر من أجل أن تصل بالحالة الحضارية العربية الى ما أسماه الأستاذ عفلق (الإنسانية العربية)».

وما دامت الرسالة في عمقها التراثي تشكل خصوصية قومية الأمة العربية وأحد تجليات خصوصية الأمة عن غيرها من الأمم فأنها لا محالة ستجعل الغرب في موقف معاد للعرب يعمل على ضرب تحركهم الحضاري. ويجعل هذا العداء في قوله التالي: «أن أوربا كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من الإسلام» إذا هي «حرب حضارية لصد عقلية التخلف والهمجية وحرب للدفاع عن شخصية الأمة العربية ووحدتها ودورها الحضاري» ونراه في النص التالي يحدد هدف هذه الحرب الحضارية[٥] «أليست العروبة هي المستهدفة قبل أي قومية أخرى وأية عقيدة أخرى من الاستعمار والصهيونية وكل قوى الشر والتسلط والاستغلال في العالم. أليس حقدهم عليها يرجع الى الحروب الصليبية والى ما قبلها. ولم نشاهد ان الغرب لاحق بعدائه شعبا بمثل الإصرار الذي لاحق به الأمة العربية؟ أليس بدافع هذا الحقد. ومن أجل منع الوحدة العربية وتعطيل النهضة العربية أصطنع الغرب الكيان الصهيوني الذي اغتصب فلسطين وأصبح قاعدة كبرى للتوسع والعدوان. أليست العروبة هي المستهدفة قبل غيرها لأنها تستطيع أن تجمع وتوحد الشعوب الإسلامية وشعوب العالم الثالث ضمن منظور حضاري تقدمي يحفظ لكل شعب شخصيته القومية وسيادته؟ ويقيم التعاون على أساس الحرية لا

القسر وباتجاه التقدم والمستقبل لا بعقلية التخلف والفوضى».

وهكذا يمضي الأستاذ في اغناء مفهوم الرسالة تمهيدا لتوضيح الدور الحضاري من خلال تركيزه على أهمية الأفق الروحي والأخلاقي لأمتنا العربية. وهجمة الغرب على الوحدة العربية وثورتها التي تشكل نقطة الانطلاق في أداء الأمة العربية رسالتها التي تقوم مقام هويتها الحضارية مرة وشرطا لبلوغ دورها الحضاري مرة ثانية. ويكتب الأستاذ في هذا الصدد(٦): «ويمكن أن نعلن في ذلك الوقت أننا أمة واحدة وأن لنا رسالة إنسانية الى العالم. هذا يعني أنه بدون هذا الأفق بدون أن نضع لنضالنا ولثورتنا هذه الأفق الروحي والأخلاقي فأننا لن تتكافأ مع الصعوبات والظروف القاسية والأعداء الأقوياء الذين يحاربوننا ويحاربون وحدتنا ويحاربون نهضتنا فلكن تكون الثورة العربية اذن ثورة كباقي الثورات في هذا العصر لابد أن تكون ثورة مميزة حتى تنجح لأنه ليس في هذا العصر أمة وضع في طريقها مثل ما وضع في طريق الأمة العربية من عراقيل. ليس هناك بلد تكالبت عليه القوى الاستعمارية لتمعن في تجزئته ولتمعن في تفتيته وتشويهه ولتفرض عليه ما هو ضد طبيعته ولتفقره وتشله مثلما وضع على كاهل الأمة العربية.

هذا الدليل الكبير الذي لا يحتاج الى مزيد من البراهين أنه اغتصاب فلسطين وهو الدليل الواضح الساطع على أن ما دبر لقتل الأمة العربية وتمزيقها لم يدبر لأية أمة أو لأي شعب آخر وقد أقول في كل العصور وليس في عصرنا هذا فحسب».

إذا هي حرب حضارية مستمرة غير متوقفة بين العرب والغرب(٧) «لابد أن نستنتج أن لا مهرب من المعركة. وأنها معركة في منتهى القسوة والضراوة معركة مع قوى البغي والاغتصاب والتخلف والاستغلال والرجعية. لا يمكن أن نصل الى حقوقنا دون خوض هذه المعركة. وبالتالي

فيجب أن نكون صريحين ومنطقيين مع أنفسنا وأن نهيىء الجو لدخول هذه المعركة».

لكن هذه الحرب الحضارية المستمرة من قبل الغرب ضد الآمة العربية تظهر في مستويات عدة. حيث يراها مرة في «معركة الوحدة العربية» ومرة ثانية في «معركة تحرير فلسطين» ومرة ثالثة في «معركة تحرير الإنسانية من خلال تحرير فلسطين». وهو اذ يربط بين هذه المستويات فانه يراه من خلال الدور الذي أعطاه الإسلام الى الأمة العربية(٨) «لأنها ابتداء من الإسلام ولدت ولادة جديدة وأصبحت أمة عظيمة تاريخية لها دور أساس في تاريخ الإنسانية وفي صنع مستقبل الإنسانية. الإسلام أعطى للأمة العربية هذه الأبعاد.. أعطاها مسؤولية الدور الإنساني العظيم». كما يراه من الرابطة التالية بقوله «مصير الإنسانية مرتبط بمصير العرب تقدم الإنسانية مرتبط بتقدم الأمة العربية وتحررها».

وعلى هذا الأساس تصبح المعارك التي تخوضها الأمة العربية من وجهة نظر الأستاذ بمثابة شروط لبلوك المعركة الحضارية مستواها الإنساني. ويلخص ذلك قوله: «أن نضال الأمة العربية سيفتح عهدا جديدا للعالم كله للإنسانية كلها».

وينبه البعد الإنساني لمعركة الحضارة العربية ان فكرة أو مسألة الدور لم تصبح معلما من فكره نتيجة لمنطق الرغبة أو لتعسف فكري قرره ايمانه المطلق بأمته العربية بل من خلال اكتشافه دور الإسلام في حياة الأمة العربية حيث ولدت الأمة العربية ولادة جديدة بالإسلام كما أن الإسلام «أعطاها مسؤولية الدور الإنساني العظيم».

وهو اذ يرى الإسلام بهذه الشفافية فهو لا يراه بوصفه تراثا أو ثقافة فقط بل من خلال عظمة تجربة الإسلام وعمقها في حياة الأمة العربية(٩) «هي أمة حكم عليها والى الأبد أن تكون متميزة عن باقي

البشر لأنها ذاقت طعم شيء لم يشاركها أحد فيه. ونحن هنا نستبعد - طبعا - كل المعان السطحية لهذا الكلام. كالغرور والانفتاح والتفاخر.. فليس هذا هو المقصود عندما أقول أن الأمة العربية تميزت بهذا الحادث الفريد الذي طبعها الى الأبد وإنها فعلا لا يمكن أن نستطيب شيئا أقل من مستوى الوحي الإلهي.. الشيء السماوي الذي هو أيضا بشرى متجسد في عقل بشري واضح».

عندما نضع يدنا على هذه الميزه للأمة العربية بهذا الوضوح وبهذه الواقعية وهذه القوة فلاشك أنها توحي بطريق خاص للثورة العربية ليس المطلوب فيه أن تخالف العقل البشري أو أن تخالف العصر والقوانين العلمية ضمن قوانين العقل والعلم يعطي هذا الاكتشاف لحركة الثورة خصوصية يعطيها مستوى وأخلاقا معينة. كما يعطيها سعة إنسانية وكونية يعطيها اتساعا وشمولا.

هذا التوكيد القاطع يفرض علينا أن نسأل ونتساءل: أليس المدى الإنساني والكوني للثورة العربية هو الدور الحضاري عينه؟ ثم أليس هذا الدور هو حامل الرسالة الخالدة في المشروع الفكري لدى الأستاذ وأداة تبليغها الى الأمم الأخرى؟ ثم اليس اختلاف الرسالات وتباين الأدوار هو السبيل الى حوار الحضارات وصراعها؟

و إذا كان الإسلام هو السبب المباشر لظهور دور حضاري جديد للأمة العربية فان هذا الدور لا يبقى ساكنا في قوالب جامدة. وأطر تقليدية بل يتجدد ويغتني من خلال حياة الأمة وتجاربها المتجددة.

وها هو يرصد الآثار المباشرة وغير المباشرة للظاهرة الاستعمارية على الدور الحضاري معتمدا هذه المرة على قانون الفعل ورد الفعل من واقعة اغتصاب فلسطين وإقامة الكيان الصهيوني(١٠) «أن الظلم الواقع على الأمة العربية والعدوان والاغتصاب وكل العوائق الاستعمارية. وأضخم ما

فيه إقامة الكيان الصهيوني. كل هذه فرضت على الأمة العربية أن تكون ثورتها أعمق وأكثر مبدئية في العصر لأنها بدون ذلك لا تستطيع أن تغالب هذه القوى المعادية». كما أنها بحكم تجربتها التاريخية من ظهور الإسلام حتى اعتداءات الغرب المتكررة عليها حتى الآن تصبح كما يقول الأستاذ[١١]: «صورة مصغرة للإنسانية ليست معزولة على الهامش. وليست حاقدة رغم كل ما أصابها. ولذلك انفردت الأمة العربية بحضارة إنسانية اقترنت برسالة دينية لها خصائصها المعروفة».

وبما أن الأستاذ كشف الطابع الحضاري والديني للمعركة الحضارية بين العرب والغرب فان ضمن الدور الحضاري للأمة العربية سمة دينية ومهمة إسلامية وبهذا الاكتشاف يكون قد حقق إضافة فكرية معرفيه للفكر القومي تنقذه من الوقوع في مصيدة العامل الواحد من جهة وتجعله يرى المعركة الحضارية العربية كما هي عليه قائمة على أساس ديني وحضاري مع الغرب ونعني بالدين أن الغرب يريد الدين المسيحي على صورته وتحت قيادته. وهذا الأمر لم يره غيره من المفكرين القوميين ولذلك يحسب له بوصفه المنظر القومي الأكثر توفيقا في تشخيص الصراع الحضاري العربي - الغربي.

وفي هذه اللحظة يمكن أن نرى الدور الداخلي للرسالة الخالدة أي في قلب الحياة العربية. من خلال قوله بالإنسانية العربية. ووضعها بأنها معطى إسلامي وعلى هذا الأساس نستنتج أن الرسالة الخالدة شكلت عصمة للعروبة من المغالاة والعنصرية والعداوة للأمم كتب يقول مؤكدا على هذه العصمة[١٢]: «ولذلك مادمنا نعتبر العروبة جسما روحه الإسلام فلا خوف أن تشتط القومية العربية وتقع في الأمراض التي وقعت فيها الدول الاستعمارية». لأن هناك قوميات اشتطت حتى مارست عنصريتها ضد الأمم الأخرى مثل النازية والقوميات الأوربية التي اندفعت خارج حدودها لاستعمار الأمم واستغلال خيراتها ومثل الصهيونية التي اغتصبت فلسطين تحت دعاوى دينية تلمودية تقول بالشعب اليهودي المختار الذي لا يقبل

الأغيار. ولقد أكد الأستاذ على هذه الخاصية الصهيونية الدينية في أكثر من مكان من أعماله الكاملة على النحو الذي سنشير إليه بعد قليل وخاصة في صراع الأدوار الحضارية بين الحركة الصهيونية والأمة العربية لأن الخطر[١٣] «الصهيوني ليس مجرد غزو اقتصادي يحركه المال والطمع المادي وإنما هو في الدرجة الأولى غزو ديني لا يشبهه في التاريخ إلا الحروب الصليبية».

وبما أنه رأى المعركة الحضارية مع الغرب قائمة على أساس الخوف من الإسلام قصد أن يؤكد للغرب أن هذا الخوف لا مبرر له على الإطلاق لأن الإسلام يؤمن بالديانات السماوية كلها كما ان الإسلام أوجد إنسانية عربية ترفض التعصب الحضاري وتنتقده بشدة. ومن هذه المعرفة يدعو الى التواصل الحضاري المدروس ويرفض على الأمة العربية الانغلاق على نفسها لأنها أثبتت قدرتها على هضم الثقافات الوافدة إليها أو المتصلة معها. ولكن بشرط أن تستكمل نهضتها وتنضج شخصيتها الحضارية. وكل اتصال دون ذلك يعرض تلك الشخصية للاعوجاج. وقال بهذا الشأن[١٤]: «أن للأمة العربية تاريخا مستقلا عن التاريخ الغربي الأوربي (...) ولكن العرب لا ينكرون ضرورة اتصالهم بالعالم الحديث. إلا انهم لا يرون إمكانية الإفادة من الاتصال الثقافي إلا إذا تكونت شخصيتهم القومية وبلغت حدا كافيا من النمو والوضوح والوعي لخصائصها يسمح بتمثل الأفكار الأجنبية».

ويحمل المقطع السابق دعوته للاتصال الثقافي ولكن ضمن شروط محددة وليس على الحبل الغارب كما يريد دعاة الاستغراب تحت حجة الفائدة من الانفتاح على ثقافة الغرب. فهو يحذر من الانغلاق الثقافي لكنه على طريقة علماء الانتروبولوجيا الثقافية يدعو للاتصال المدروس حتى لا تفلت من أهل العلم الثقافي ورجال الحضارة والعلم الحضاري ودعاة العروبة عمليات التحلي والاكتساب التي تحدثنا عنها في متن الكتاب بحيث تتم على هوى الثقافات الغربية وإنما تخضع لإرادة الأمة والخطط الثقافية التي تضعها مؤسساتها المتخصصة[١٥].

ونحن إذا تتبعنا تجليات مفهوم الدور الحضاري في فكر الأستاذ، نلاحظ أن طرحنا للقضية الثقافية كان يريد أن يقول أن الأستاذ أعطى أهمية للتأثير المتبادل بين الفكرة التي تقود وتوجه الدور الحضاري للأمة العربية وثقافتنا من جهة وثقافات الأمم وأفكارها ودورها الحضاري من جهة أخرى بناء على قانون التخلي والاكتساب، لذلك نرى الأستاذ في أحاديثه المتفرقة عن الثقافة يدعو أن يكون الوازع في اختيار العنصر الثقافي أو رفضه التوجه الحضاري والثقافي الذي تقوم به الفكرة التي قامت على أساسها الحضارة العربية واكتمال شخصية الأمة وتبلور معالمها كافة: الاقتصادية، والثقافية والسياسية.

ولنتمثل إضافات الأستاذ للفكر القومي لا بوصفه شارحا له بل بوصفه مبدعا، عندما اكتشف الطابع الديني للصهيونية والتشابه في بعض المحددات الأساس للدور الحضاري بين الإسلام واليهودية هذه الجوانب التي لم يراها غيره وهو يستشرف وجه الشبه الخادع. بين الصهيونية والحركة العربية بـ[١٦] «قد أوجد هذه الواجهة التي فيها بعض الشبه الخادع بالخصائص العربية.. كأنه سم موضوع لهذا الجسم. فالصهيونية حركة عنصرية تقوم على دين سماوي فيه الإطلاق.. لأن فيه التوحيد، وفيه الشعور القومي كذلك. وفيه فكرة الرسالة ففي الدين اليهودي وفي الصهيونية نفسها هناك شيء من هذا.. ولكن الفروق أكبر بكثير من نقاط التشابه. أي أن الإخلاف بينها وبين القومية العربية لدرجة تبدو فيها الحركة الصهيونية وقيام الكيان الصهيوني. وكأنه الوجه المعكوس والمشبوه والنقيض للكيان العربي.. لمقوماته.. ولدوره.. ولطموحه».

وتنفرد الأمة العربية بدورها الحضاري، من خلال الإسلام الذي يمثل نقيضا لليهودية. وليست الموسوية كما عبر عنها التوراة. بأصوله غير المحرفة، وتتميز عن الصهيونية[١٧] «بفضل الإسلام، لأنه بدون الإسلام كان يمكن أن يبقى بعقلية قبلية.. شعب واسع رحب لا تكتنفه العقد،

وهو منفتح متسامح مستنير على أرضه غير مشرد، وغير تائه، مؤمن بالمستقبل. واثق لهذا المستقبل مهما حدث. تحرر من العنصرية. ومنذ مئات السنين دخلت إليه عناصر مختلفة امتزجت به وأصبحت جزءا منه. وهو انتسابي بعقيدته وبتكوينه أيضا وبامتداد رقعة وطنه. فقد تكونت الأمة العربية بالإضافة الى الشعب العربي من شعوب كانت في السابق قريبة من العرب. ولكنها ليست عربية. مهيأة لأن تتعرب فانصهرت في بوتقة حضارية وروحية واحدة».

وفي هذا النص المهم حدد الأستاذ كله الصراع على الدور الحضاري بين العرب والحركة الصهيونية كما وصف مزايا الآمة العربية مثل: الاتساع والانفتاح.

والإنسانية والرسالة الإسلامية. ومعركة الحضارة العربية، والدور الحضاري العربي. كما لخص طبيعة الصراع على الدور الحضاري بين العرب والغرب في خوف أوربا على نفسها من الإسلام(١٨): «أن أوربا اليوم، كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من الإسلام». وهذا الاختلاف،كما قلنا، كان مدعاة للصدام مع الدور الحضاري العربي من أجل كسره، ومن ثم إلغائه. وكذا ضرب مرتكزا ته. وإخراجه من حلبة الحوار أو الصراع الحضاري، والاستئثار بالعالم على النحو الذي عليه العالم الآن.

ويلخص الأستاذ مسألة اختلاف الأدوار الحضارية بين الأمم والصراع عليها ومن أجلها بقوله(١٩): «أن الغربَ يتابع حربا ضد الأمة العربية منذ مئات السنين.. أن امتنا لها دور آخر ووزن آخر... لها رسالة. موقعها الجغرافي المتوسط بين القارات.. العداء لها كان قبل اكتشاف ثرواتها.. أي أن الاقتصاد فيها ليس هو الشيء الأهم والباعث على هذه المنافسة وهذا العداء. إن المنافسة هي بسبب هذا الدور الحضاري الذي جاء به الإسلام (...) أما العداء للعرب فباطنه الخوف من إمكانات الدور الإنساني الذي يمكن أن يؤول إليهم».

بما أن البعث حركة قومية جاءت من أجل كل العرب بغض النظر عن أماكنهم ومذاهبهم ودياناتهم واتجاهاتهم فإن على تلك الحركة التوحيدية إن تقترن بشكل دائم بكل ما يمت لهذه المهمة من صلات. وأهمها الصلة الانقلابية فإشكالية بناء الحزب على صورة محددة تختلف عند عفلق باختلاف[٢٠] وظيفة الحزب في أمة كأمتنا وأوضاع كأوضاعنا وبين وظيفته في أمم أخرى وأوضاع أخرى أما ما يخص الحزب في الأمم المتقدمة فأنه حسب رأيه: «ينظر الى الحزب على أنه نموذج للدولة أو تصميم لدولة مقبلة أو لإصلاح دولة قائمة فالحزب يتخذ في مبادئه وفي تشكيلاته وأعماله أوصاف الدولة وأهدافها وغاية ما يطمح إليه الحزب في تلك البلاد أن يعد تمام الأعداد جهازا جديدا يستطيع في الوقت المناسب عندما تتوافر الشروط وتحين الفرصة أن يستلم الحكم ويدير الدولة فهل هذا هو مبتغانا وهل هذا ما نحتاج إليه وهل هذا هو ما يلبي حاجتنا ويسد النقص الذي نشكو منه؟»

عندما تقوم الأحزاب في البلاد ذات الأوضاع السليمة السوية لا يكون النقص إلا في الدولة ولا يكون هذا النقص في الدولة نقصا فادحا جوهريا خطيرا فيعمل الحزب في وقت قد يطول وقد يقصر على أعداد الرأي العام لتأييد وجهة نظره أو رأيه وعلى أعداد أعضائه والصفوة منهم لكي يستطيعوا عندما يتولون الحكم أن يصلحوا ذلك الخطأ الذي يرونه في الدولة في ناحية أو أكثر والدليل على بقاء الأمة سليمة في الدول الأخرى هو أن الأحزاب على اختلافها وتناقضها أحيانا يكمل بعضها عمل بعض

ولكن الحزب هناك قلما يتعرض للأمة لان الخلل في البلاد ذات الأوضاع السليمة لا يتجاوز الدولة ولا يصل الى الأمة فالأمة هناك قائمة وهي شيء حقيقي راهن قوي منسجم للحد الكافي واع لذاته ومصلحته.

وإنما الخلل في من تولوا إدارة تلك الأمة وفي الجهاز الإداري أو ناحية من نواحي ذلك الجهاز.

فإذا قامت الأحزاب في بلاد الغرب على صورة الدولة. وكانت تكتفي بالجسم دون الروح فإن بلادهم لا تتطلب أكثر من ذلك «وبما أن الأمة العربية على الصورة التي شخصها عفلق في حاجة الى حزب، إلى حركة تمثل بالدرجة الأولى عنصر الروح أو تخلق عنصر الروح والحياة، وتتوفر فيها هذه الروح لتشع منها فيما بعد على المجموع الأكبر والحزب الحقيقي الحزب الحي الذي يمكن أن يؤدي رسالة في العصر الحاضر للأمة العربية هو الذي يجعل هدفه خلق أمة أو بعثها شريطة أن يحقق هذا الوصف في نفسه أولا، أي أن يكون هو أمة مصغرة للأمة الصافية السليمة الراقية التي يريد أن يبعثها ليس غريبا أن نسمع في بلاد العرب من أقصاها الى أقصاها منذ حين وخاصة في الزمن الأخير تتردد كلمة تخرج من أفواه البسطاء قبل المثقفين وكأنها كلمة السر وكان فيها العلاج والحل والخلاص هي كلمى الانقلاب...»

وميشال عفلق عندما يظفر بتحديد الخصائص السابقة للحزب فانه يعول على التاريخ العربي مرورا بالحقيقة التالية: «وهي أن العرب في تاريخهم الطويل لم يعرفوا غير نوعين من الحياة. الانقلاب والانحطاط خلافا لكثير من الأمم التي عاشت في الماضي، ولكثير من الأمم التي تعيش في الحاضر هذه تكاد تكون ميزة أو علامة فارقة حقيقية للأمة العربية اما أن تقوم بانقلاب يحدث نهضة تفيض على بلاد العرب وتبلغ الشمول وتصبح نهضة عالمية إنسانية وأما أن توغل في النوم ولانحطاط فليس من

حل وسط في تاريخ العرب أو ما يصح أن يسمى تطورا في حين أننا نعرف أن تاريخ الأمم الأوروبية منذ مئات السنين عبارة عن تطور في الكثير والانقلاب هو الاستثناء والشذوذ عن القاعدة فإذا نظرتم الى ما يقاسيه العرب في هذا العصر من المصائب والكوارث التي تتوالى عليهم وكل واحدة أثقل وأقدم من التي سبقتها إذا تدبرتم هذا الواقع المر الذي نعيش فيه والذي كاد يوصل الى اليأس وأخذتم بعين الاعتبار تلك النظرة التي ألمحت أليها وهي أن الأمة العربية بطبيعتها لا تعرف حلا وسطا فهي إما أن تعيش على الانقلاب وإما أن تعيش في الانحطاط وإذا نظرتم من جهة الى قسوة الواقع ومرارته ومن وجهة أخرى الى تلك الظاهرة التي هي بمثابة قانون أدركتم آن إيغال العرب فيما يبدو في الظاهر أنه تأخر وانحطاط هو عبارة عن تحفز للانقلاب الذي هم مهيأون له».

وإثر تحديده للمفاصل الرئيسية للصفات السابقة الذكر يتوقف عفلق ليسند كل ما قاله على قاعدة منطقية يرى من خلالها أن الحزب لابد أن يكون أمة الانقلاب قبل أن يحقق انقلاب الأمة ويؤذن هذا القانون الانقلابي المستخرج من أعماق الحياة العربية بتشابك لحظتين في فكر ميشال عفلق: اللحظة الوحدوية واللحظة الانقلابية باعتبار أن كل واحدة تمثل الأخرى وتعكسها عكسا جدليا كما وتمثل شرطها في نفس الوقت داخل القانونين التاليين:

- قانون وحدة النضال ونضال الوحدة.

- قانون أن يكون الحزب أمة الانقلاب قبل أن يحقق انقلاب الأمة.

وهنا ينفرد عفلق في «إشكالية النهضة» و«إشكالية الانقلاب» متخطيا من سبقه من رواد الفكر القومي الحديث بتقديمه هذين القانونين كتعبير عن آليات النهضة وبذلك يكون عفلق قد حقق إضافات نظرية جديدة لإشكالية الانبعاث العربي لأنه رآها بعين ثاقبة ومنتمية في آن معا حيث

يقرر أن[٢١] «أمة الانقلاب التي هي الحزب يجب أن تبرهن ليس فقط في الأهداف المكتوبة، ليس فقط فيما تضعه على الورق من برامج ومناهج وأساليب التنظيم بل تبرهن على عقلية جديدة على روح جديدة على خلق جديد لا تجمعه بالواقع الفاسد أية رابطة أو جامعة. ان لذلك علائم ودلائل وليس من الصعب أن نلمس الدلائل التي تدلنا على أن هذا التركيب الجديد هذه الأمة المصغرة هذا الحزب هو فعلا انقلابي أم أنه لا يحمل من الانقلاب إلا اسمه وعنوانه وهذه الدلائل هي أن تتحقق في الحزب نفسه في أخلاق أعضائه وأسلوب عملهم وفي طريقتهم نحو تحقيق أهدافه أن تتحقق كل الفضائل التي يبغون خلقها في المجتمع المقبل لا يمكن أن يكون الحزب مماثلا مشابها متجانسا مع الواقع الفاسد المريض وان يدعي أن باستطاعته خلق مجتمع صحيح جديد فكما أننا نريد أن تكون امتنا في مستقبل قريب أمة منسجمة حرة طليقة من كل الاعتبارات البالية يحتل فيها المواطن المكانة التي تؤهله إليها كفاءته وخلقه وإخلاصه كذلك يجب أن يكون الحزب الانقلابي محققا لهذه الصفات في تشكيله وفي أثناء سيره نحو غايته إذا لم يكن الحزب الانقلابي مجالا لظهور الكفاءات المخبوءة في الأمة إذا لم يكن مجالا لاحتلال كل فرد حسب ما تؤهله إليه قدرته لا أسمه ولا أسم عائلته إخلاصه لا وجاهته أو وسائله المصطنعة الخارجية إذا لم يكن الحزب منذ بدئه في طريق النضال قادرا على تحقيق الفضائل التي يدعو الشعب إليها ويسعى الى تحقيقها في الأمة فكيف يمكنه أن يحققها فيما بعد؟ لنقل باختصار أن مستقبل العرب متوقف على هذه المرحلة من النضال. فإذا لم نقدر خطورتها التاريخية إذا لم نكن واثقين من أننا نكتب صفحة جديدة في تاريخنا وفي تاريخ الإنسانية فلن نقوى على تحقيق شيء إما أن نأتي بشيء مبدع خطير يقلب حياة العرب من الذل الى المجد ومن الانحطاط الى الرقي. وأما أن نفشل في محاولتنا فشلا تاما لن نعرف الحل الوسط وقديما قلنا في اكثر من

مناسبة ان التطور يعني التأخر وأننا لا نستطيع أن نتقن النظرة النسبية وأن نقول أن هذا الحزب ورغم كل أخطائه ونواقصه هو خير من كل الأحزاب الأخرى».

وبعد أن ينتزع من التاريخ العربي والتجربة العربية في ماضيها وحاضرها الشرعية المنهجية للقانون الانقلابي. انطلاقا من أن الأمة العربية لا يصلح معها التطور فقط،وإنما في حاجة الى انبعاث ينطلق من أعماقها ويحرك أساريرها ويهز بناءها، يبحث بكل دأب عن وسيلة الحزب لتحقيق انقلابه وأهدافه، فيجدها بالنضال لأنها تعبيره العملي «ولأن النضال بالنسبة للعرب ليس أسلوبا فحسب وإنما هو غاية في حد ذاته» ويقصد عفلق بالنضال أن تغالب الأمة العربية نفسها بعد تلك الفترة الطويلة، بعد ذلك الاسترخاء، بعد ذلك الاستسلام للحياة السهلة المليئة، بعد ذلك الابتعاد عن روح الحياة الجدية القاسية، أن يعود إليها الحنين لمصارعة الحياة والقدر، وأن تنظر للحياة نظرة عميقة بطولية، وأن ترى القيمة في الجهد قبل أن تراها في ثمرة الجهد أن الآفات التي يشكو منها مجتمعنا ليست بالآفات السهلة، فالفكر مقيد مستعبد، فقير هزيل مقلد والشخصية سطحية ضعيفة الثقة بنفسها لا تقوى على الاستقلال ومجابهة الأمور بصراحة والروح متميزة وناضبة. آفاقها محدودة.

وبعد أن يطرح أسئلته العملية التالية التي يشخص بها حالة الأمة هل تمحى هذه الآفات؟ هل يسترد العرب معنى الحياة الأصلية بمعجزة من المعجزات؟ أو بتغيير في شكل الحكم أو أشخاص الحكام، وهل هذه المظاهر تكفي لكي تتحول الأمة العربية من أمة تعيش على هامش الحياة والإبداع تتطفل على إنتاج غيرها وقلما تحسن استعمال هذا الإنتاج ، هل تستطيع أمتنا أن تنتقل من حالة كهذه الى حالة المساهمة الصادقة في الحضارة والإبداع، وأن يكون لها الأثر البين الواضح في حضارة العالم

وفي تفكير الإنسانية وهل تعود الى نبع الحياة لتستلهم القيم الخالدة وتنشرها وتذيعها على الآخرين؟

نقول أنه بعد تفرده على أقرانه من المفكرين العرب بهذا التشخيص الداخلي ينفرد أيضا بتقديم الإجابة من خلال تأكيده باستحالة الانتقال من حالة الى نقيضها إذا اكتفينا بتغيير المظاهر والأشكال دون تغيير في الروح؟ لا نصل الى الروح والأعماق إلا عن طريق هذه المشقة، هذا الانقسام الداخلي في نفس الأمة ذاتها، هذا الحرب العنيفة التي لا تداني قسوة الحرب الخارجية مع الأعداء الألداء.

وبتأكيده على أهمية الروح يكون مؤسس البعث قد قرر الثوابت التالية[٢٢].

«أننا نعتقد بأن الروح هي الأصل في كل شيء.... الدافع الروحي العميق لا يسيطر على المادة والوسائل فحسب، وإنما يخلقها أيضا، فالانقلاب يجب أن يتناول الروح مباشرة وأن لا ينحصر أو يتوقف عند حدود الأشكال والمظاهر (....) أنني اعتقد بأن شيئا من هذا لا يكون، لأن التبديل السطحي الذي لا يمس الروح والذي لا يفتح الفكر والذي لا يهز الخلق ويقومه والذي لا يفجر الإيمان نتيجة المصاعب، أن هذا التبديل السطحي لا يلبث أن يتحول الى ما كان عليه في الأمر السابق».

أن عفلق إذ يستشف أهمية الانقلاب في الحياة العربية.. في بناء الوحدة العربية.. في إعادة بناء الجيل العربي الجديد، فإنه يسند إليه مجموعة من المهام الصادرة من هذه الأهمية، ومن توتراتها الداخلية، حيث أنه يرى على سبيل المثال، ان[٢٣] «انضمام الأفراد الى حزب البعث لا يعني خروجهم من الواقع الفاسد وتهيؤهم لمحاربته والظفر عليه».

نقول أنه بناء على تلك الاهميات وأولوياتها في الحالة الانقلابية أدخل شروط الحالة الانقلابية للإشكالية، ذلك عندما جعل منها سنن الانقلاب

في نفوس وشخصيات المتتسبين الى حزب البعث ضمن هذه الشروط الآتية[٢٤]:

١ ـ تجسيد الروح الانقلابية في سائر مستويات البناء الاجتماعي العربي، في بعديه الوطني والقومي، تجسيدا قوميا يعزز الثقافة والشخصية القومية ويضع في اعتباره التعددية الثقافية التي تغني الروح الانقلابية وسائر أشكال تجسيدها.

٢ ـ خلق الفرد العربي خلقا حضاريا ليكون نواة الجيل العربي الجديد الواعي لوحدويته والمسؤول عن المشاركة في المعركة الحضارية والإيمان بدور الأمة العربية الإنساني والحضاري.

٣ ـ ثم جعل هذا الفرد أداة صادقة في الحركة العربية التي ستقود التغيير وتتجزه في قلب الحياة العربية.

٤ ـ تجنب كل إهمال في إيقاظ الوعي والمسؤولية الأخلاقية والإيمان الروحي في نفس هذا الفرد ينقص من انتمائه للحركة الانقلابية ويضعف من إمكانات انسجامه وتوافقه معها.

٥ ـ وكل تهاون في ضبط هذا الفرد بالنسبة لما كلفه قدره التاريخي، وما رتب عليه من أدوار داخل حركة التاريخ وخاصة كفاحه لإنقاذ هذه الحركة وإضفاء روحه الحضارية عليها، نقول أن كل تهاون بذلك يجعل منه عنصر عرقلة وتخريب.

٦ ـ أن تكون الحركة الانقلابية قادرة دائما وأبدا على إنتاج الأدوات الانقلابية وخاصة الإنسان منها وأن تجعله موضوع نقدها لتخلصه من كل عور أو انحراف قد يعلق به.

٧ ـ أن يكون الجيل العربي الانقلابي صورة سباقة للأمة، وأحد أشكال تعابيرها الرئيسية وخاصة في الزمن الصعب، وفي وقت الأزمات.

ولنعلن كخلاصة عما قدمناه وشرحناه من أن إشكالية الانقلاب في

فكر ميشال عفلق قد استراحت على هدف أساسي يتمثل في الكفاح لجعل الأمة العربية على صورة نفسها في ماضيها، في تجربتها الإسلامية، في حاضرها ومستقبلها، وأن يقوم بتوحيدها نفسيا على قاعدة الانقسام الذي يعزز التوحيد.. وأن يجعل كلامها مطابقا لعملها.

أدوات الانقلاب:

كثيرا ما تطرح القضايا المتعلقة بالإشكالية الانقلابية في فكر ميشال عفلق طرحا ناقصا من قبل بعض ممن أسند إليهم مسؤوليات سياسية أو ثقافية أو حزبية. ويظهر النقص بكل بداهة في تغييب الأدوات الانقلابية أو تهميش دورها في الإشكالية رغم أنها، كما نعتقد، تمثل الثقل في بناء الإشكالية. ولا شك أن النقص بجانبيه العفوي والموجه، رغم ضيق الحدود بينهما، كان في أبسط أشكاله وفي نياته الحسنة جدا، أو السيئة بخجل المهنة والموقع أو الهدف، المناخ والسند المناسب للتواطؤ على الأهداف والغايات التي تحملها وتنشدها في آن معنا هذه الانقلابية.

هذا الكلام رغم أهميته وخطورته معا لا يريد أن يتصدى لتلك الظاهرة بالدراسة والتحليل، وإنما يتوخى لفت الأنظار إليها والتنبيه الى مكانتها في العودة الى «نقطة البداية» أو في استحضارها مرة ثانية.

أهمية المشكل هنا أذن أن تتابع فكر ميشال عفلق من أجل أن نتفحص أدوات الانقلاب ومكانتها في بنائه للإشكالية الانقلابية ومراهنته عليها، كما أسلفنا في إنجاز النهضة الحضارية العربية.

لنبادر الى القول أنه أعطى هذه الأدوات قيمتها الحقيقية ومكانتها التي تليق بها في بناء الإشكالية من موقع العارفين بأمور وشرط الحالة الانقلابية ومجال امتحانها، ولهذا نجده يتحرك في تحديد الأدوات من خلال المقدمات التالية(٢٥).

• إن حركتنا عربية انقلابية، وقد بينا العلاقة بين الانقلابية والصفة

القومية، وقلنا أن انقلا بيتنا تنبع من صلتنا وشعورنا بفقر الواقع وقساوته وضرورة تبديله، والقيام بانقلاب يرجع الى الأمة حقيقتها ويظهر كفاءتها الحقيقية وروحها وأخلاقها.

- يستطيع الحزب أن يخلق أفرادا يكونون في البدء آحادا ثم يصبحون عشرات ثم مئات وألوفا يكون لكل فرد من هؤلاء نتيجة هذه الممارسة وهذا الإيمان الذي يعزز بالعمل النضالي المتواصل من الخبرة والكفاءة ما يعادل ألفا ويستطيع أن يخلق الحركة والحياة في ألف آخرين وأن يكون مصدر إشعاع وتوجيه ووعي لمجموع الشعب، فالشباب المثقف الذي وعى أن مكانه التاريخي في هذه الحركة الانقلابية، فتقدم إليها، وسار في طليعتها، يجب أن يكمل هذا الوعي بالعمل النضالي الشعبي الانقلابي المنظم، فلا يقف عند هذه المرتبة الأولى من الوعي بل يرتفع الى مرتبة أخرى.

- الشروط اللازمة للحركة الانقلابية تقوم على الوعي أولا، وعلى الشعور بالمسؤولية ثانيا، وعلى الإيمان أخيرا، ولا بد أن تتحقق هذه الشروط لكي تخلق الحركة الصحيحة، وكل عمل يستهتر بهذه الشروط أو بعضها بحجة الإسراع هو عمل متناقض وزائف (...) أن زمن الحركة الانقلابية يرجع آخر الأمر الى نشاطها والى صدقها وجديتها(٢٦).

- إن حال حركتنا هي حال أمتنا.فالأمة العربية في هذا الدور التاريخي تبحث عن الحل الملائم لها المتكافئ مع عظمة قدرها، فتأخرها عن السير في طريق التقدم والوحدة والانسجام مع أجزاء العالم الراقي لا يفهم منه أيضا أنها ليست كالأمم الثانوية في التاريخ فهي تذكر بأنها حملت رسالة الى العالم، وتعرف كيف تمزق كل الأثواب الكاذبة التي يحاولون إلباسها إياها.

وكذلك حركتنا كانت مهددة في الماضي بأن تصغي الى إيحاءات الوسط والبيئة وتسري إليها عدوى التقليد إليها شهرة الاستعجال والتشبه بالحركات الرائجة التي تنشد النجاح الرخيص، غير أن ذلك الجوهر السليم الذي تحتويه، وهو أنها حركة تاريخية، وتلك الثقة بالنفس والعقيدة الداخلية التي قلما يحسن اللسان والإفصاح عنها، لأن الضمير هو الذي يحتويها، كل هذا هو سر قوة البعث العربي وما نسميه بالإيمان.

في حركة البعث العربي يلتقي الوعي على أحسن أشكاله بالإيمان في أعمق صورة فحركتنا واعية لأنها تتطلع الى المستقبل، الى الأمام، الى أعلى مستوى يمكن أن يبلغه خيرة المفكرين، والمثقفين من أبناء الشعب العربي، وتقوم على الروح العلمية والتفكير المنظم، وهي تجمع الى جانب هذا إيمانا عميقا خصبا يمدها بالقوة الحيوية التي تجعلها تظفر على شتى المصاعب، وأبسط مقارنة نقيمها بين هذه الحركة ووسائلها المحدودة ونشأتها المتواضعة وبين الأحزاب والفئات التي تحشد الألوف وتقوم على النفوذ الاجتماعي الزائف والوجاهات، وكل ما يستطيع الوسط النفعي أن يبتكره من وسائل الإغراء تجعلنا نرى أن حركتنا قد استغنت عن طوع واختيار عن كل هذه القوى الكاذبة وزهدت فيها وآثرت طريق البساطة، وبهذا كانت قادرة على التغلب على أعدائها.

وأني أكرر ما قلته مرارا بأن الانقلاب هو محور حركتنا الذي يميزها عن سائر الحركات الأخرى، ويجب أن يفهمه البعثيون فهما داخليا عميقا، قبل أن يفهموا منه على أنه مجرد خطة لتنظيم المجتمع في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فالانقلاب الذي يدعو إليه البعث العربي لا يستطيع أن يدعو إليه أي حزب آخر، أنه أوسع من أن يكون برنامجا أو خطة سياسية أو اجتماعية، وأكثر من أن يكون أسلوبا أو وسيلة لتحقيق مبادئ الحزب، إن الانقلاب هو سر هذه النفسية الجديدة في حياة العرب. وهو يعني بصورة خاصة أن العرب لا يمكن أن يصلوا الى أهدافهم

إلا إذا ساروا في ذلك مدة طويلة، في طريق طويلة، وفي اتجاه معاكس لهذا الواقع الذي نعيش فيه، فعليهم قبل أن يقدموا أنفسهم كأطباء لهذا الواقع المريض أن يسلكوا الطريق الذي يربي شخصيتهم من جديد.

أن الانقلاب هو قبل كل شيء في هذه الحركة النفسية المكافحة المعارضة أنه الدأب المشع بالإيمان الذي يخلق في العرب نفوسا جديدة وأخلاقا جديدة وتفكيرا جديدا.

وعلى أثر هذه المقدمات التي حاولنا جاهدين تجنب الانزلاق مع مغرياتها نباشر في ذكر وتسجل الأدوات الانقلابية من خلال سؤال عفلق التالي:

«والآن نتساءل عن وسيلة الانقلاب؟»

لنبدأ أذن في ذكرها على شكل نسق إشكالي يوحد بين السؤال الانقلابي ومضمونه العقائدي[٢٧٠].

١ ـ أدوات حية من البشر الذي يعتنقون فكرته ويناضلون في سبيل تحقيقها وبمقدار ما يكون اعتناقهم للفكرة عميقا ونضالهم في سبيلها صادقا يكون الانقلاب قويا كاملا.

٢ ـ الانقلاب ليس له إلا معنى واحد واضح هو الصراع والمعاكسة للعقلية والخلق والمصالح السائدة لأن الانقلاب في حد ذاته هو مغالبة الحقيقة، لأن للأمة حقيقة رغم تخلفها ورغم تشوهها، وهذه الحقيقة تعلن عن نفسها مهما تكن سيطرة الواقع، الانقلاب هو هذا الإعلان هذا الإثبات لوجود الحقيقة، الانقلاب هو مغالبة المستقبل للحاضر، فقد كان ماضيا انقلابيا، ولن تبلغ مستواه ولن نلتقي به الآن إلا عن طريق الانقلاب.

٣ ـ محاربة الأوضاع الراهنة لا لكونها فاسدة فحسب، بل نحاربها لأننا مضطرون الى أن نحارب لأنه لا بد لنا من أن نحارب، لا بد

للأمة من أن تستكشف في نفسها بقايا القوى الصادقة، وأن تستخرج من أعماقها كنوز الحيوية الكامنة، أننا نناضل ونكافح الأوضاع السياسية والاجتماعية الزائفة، الفاسدة،لا لمجرد إزالتها وتبديلها، بل أيضا لكي تعود للأمة وحدتها في هذا النضال. فالأمة أنكرت ذاتها نتيجة الغفوة الطويلة، ونتيجة التشويه الطارئ عليها حتى لم تعد تعرف ذاتها ولم يعد يعرف بعضها بعضا، لقد انقسمت أيما انقسام، فتناثرت أجزاؤها وأفرادها، وهبطت الى مستوى وضيع من سجن الأنانية، وسجن المصالح الصغيرة، وسجن اعتياد الجمود والقعود، في مثل هذا المستوى لا تنشأ وحدة بين الأمة، ولا توجد الحرارة الكافية للتعارف والتآلف بين هذه الملايين من العرب، لا بد من مستوى مرتفع مضطرب، متحرك، لا بد من مشاق نجتازها.

٤ ـ والتنظيم شيء أساسي وحيوي ويرافق العمل الانقلابي، بل هو من طبيعة هذا العمل ويستمد من فكرته الانقلابية (..) وأن الأغلبية الانقلابية لا بد وأن تعتد اعتمادا أساسيا على التنظيم المتناسق الحلقات والأجزاء وأن ينقطع من أجل هذا التنظيم ويتفرغ له كل من أخذ القرار بأن العمل الانقلابي صار قدره ومحراب صلاته وصومه وعيشه.

٥ ـ الصلة القومية التي توصل الطليعة من الأمة الى التفكير الانقلابي هي نفسها التي تساعد أكبر مساعدة على تحقيق الانقلاب.

٦ ـ التشبع بالتراث القومي، وإن الذي يقصر في فهم التراث واستيعابه وتوظيفه في معركة الحضارة هو الذي يفقد روح التجديد وروح الابتكار هو الذي يفهم ماضي الأمة وروحها، ولا يفهم من ذلك الماضي وتلك الروح إلا القشور والمظاهر الجامدة، فالإسلام كجزء

أساسي من هذا التراث نشأ في قلب العروبة وأفصح عن عبقريتها أبلغ إفصاح، وفي هذه اللفتة الى عظمة التراث العلمية قطع مع الفكر المتغرب الذي يدعو الى تخلي العرب عن الهوية القومية، والتنكر للذاتية التراثية، وهو دعوة للتحرك السياسي الحضاري من خلال الارتباط بالواقع التاريخي الاجتماعي والثقافي ومن معطياته الحضارية، فطلائع الوطن العربي في أغلب مراحله الصدامية مع الغرب تكونت في المدرسة القومية الإسلامية.

وبهذا البناء الإشكالي المتميز للانقلابية، يكون عفلق قد أغنى طرح المسألة الانقلابية، وقام بتوظيف، دورها ومهامها وغاياتها في الحياة العربية، الأمر الذي يبرز لنا ربط فكرة الانقلاب الحضاري به، فقد أدى الى أحداث ثورة في الفكر العربي، بدلت أرضيته بشكل جذري(٢٨).

من هنا إذن، أي من هذا الإسهام جاء تكليف التاريخ للحركة الانقلابية بمهام دور التوحيد والتحرير والاشتراكية، وبالمحاربة الحضارية للحركات الموسومة بالتبعية للغرب والمشحونة بالعلمانية على الطريقة الأوروبية وبمصارعتها أيضا على الدور القيادي على الرغم من وجود أكثر من عامل سياسي واجتماعي وتحريري بينهما، لأن المعركة الحضارية لا بد أن تقاد من حزب النهضة، لأنه الحزب القادر على إضفاء الطابع الوحدوي على التمايزات الاجتماعية والثقافية والقومية.

ولقد مهد طرح عفلق الإشكالية الانقلابية بهذا المستوى والتنوع والطموح الى وضع الحركة الشعبية أمام مهامها، لتبدأ مسيرة التغيير في سائر دروب الحياة العربية، وفي مقدمتها القيم التي تخص الروح العربية(٢٩) إلا أن تحديد المهام عند عفلق لا ينغلق على نفسه، وإنما يعطيها أولوية لإخصاب الأساس الذي أبتكره للحركة، وتحميلها دور الشروط في اكتشاف الدور التاريخي للتنظيم القومي الذي يشكل الوعاء

للقوى الانقلابية والصورة المصغرة في نضالها وإجراءاتها الانقلابية.

تلك هي النقاط التي تظهر فيه القيمة التاريخية لفكر ميشال عفلق وثمة نقاط أخرى تظهر في جعل هذه الحركة أداة تحريك وتثوير للقوى الوطنية في الوطن العربي، وذلك عندما أعطى الثورة العربية صفتها الموحدة، ووضعها في قلب العصر، وفي سماء الروح العربية الأصيلة، وإنقاذ الأجيال العربية الصاعدة من الضياع بين العصبيات الجهوية والعائلية والإقليمية والثورة الأممية، وفي الربط بين الفكر العربي والتجربة العربية والنظرة الجديدة الى العالم بما فيه الوحدة العربية.

وإضافة الى ما تقدم، فقد كان لإشكاليته الانقلابية أسبقيتها في إعادة الأمة العربية الى نفسها، فتحت الأبواب والنوافذ بين التجارب العربية القديمة والحديثة، وذلك عندما وضع الإسلام في موقع التجربة الرائدة والقائدة للتجربة العربية الحديثة، ووضع هذا الأخير في الموضع الذي يرد للأجيال الجديدة اعتبارها تمهيدا لإقناعها برد الاعتبار للإسلام، لا لأنه دين العرب فقط وإنما لأنه رسالتهم التاريخية واستعدادهم الدائم.

ذلك كله يمكن أدراجه داخل إطار التفرد في إشكالية عفلق الانقلابية، وذلك هو الجانب المهم، في إيقاف عملية انتزاع الهوية العربية من قبل الفكر الغربي ومدارسه في الوطن العربي، تحت رايات التقدم تارة، وتجاوز الفكر البرجوازي الصغير تارة أخرى، فإن عدة أنواع من التواطى. على هذه الفكرة ستظهر على التوالي في الفكر العربي المعاصر لحرمانه من تميزه وتفرده في فهم التجربة العربية واستجوابها.

○ ○ ○

الدكتور عزالدين دياب

دمشق 1988

الهوامش

- ميشيل عفلق - في سبيل البعث ج١ - ص ١٠٥.
- المرجع السابق - ص ١١٠.
- المرجع السابق - ص ١٠٧.
- المرجع السابق - ١١٠.
- المرجع السابق - البعث والتراث - ج ٣ ص ١٧٩ - ١٨٠.
- المرجع السابق - البعث والتراث - ص ٢٥ - ٢٦.
- المرجع السابق - ص ٢٧.
- المرجع السابق - ص ١٩.
- المرجع السابق - ص ٦٣.
- المرجع السابق - ص ٤٨.
- المرجع السابق - ص ٧١.
- المرجع السابق - ص ٧٢.
- المرجع السابق - ج١ ص ٢٠٢.
- المرجع السابق - نفس المعطيات.
- المرجع السابق - ص ٢٨.
- المرجع السابق - ج٣ - ص ٧٠.
- المرجع السابق - ج ٣ - ص ٧٠ - ٧١.
- المرجع السابق - ج ١ - ص ١٣٠.
- المرجع السابق - ج ٣ - ص ٦٩.
- المرجع السابق - ج ٣ - ص ٩٨.
- المرجع السابق - ج ١ - ص ٢١.
- المرجع السابق - ص ٢٠٩.
- المرجع السابق - ص ٢١٠.

منشورات
الطليعة العربية في تونس
1994